الاسلام بين الديانات

من الأمور السهلة اليسيرة على الكاتب الذى يبحث عن مكانة الاسلام بين الأديان أن يقف عنـــد هذه المكانة دون لف ودوران . ودون تأويلات وتخريجات ودون أن يحمل نفسه ويحمل قراءه معه مشقة الجدل وعسر الاستقصاءات لأن مكانة الاسلام بين الديانات المنزلة والديانات غير المنزلة ظاهرة ساطعة غاية فى الوضوح والجلاء .

وإذا كان علماء مقارنة الأديان يقررون أن الأديان جميعها يجمعها رباط واحد وتستمد وجودها وحياتها من نبع واحد وتتفق وما تدعو إليه من حب وإيثار ورحمة للإنسان حتى أن الدوس هكسلى الفيلسوف الأنجليزى المتصوف يقرر فى كتابه الفلسفة الدائمة أن الأديان جميعهـــا تهدف إلى تحقيق هذه الرحمة والايثار للناس جميعا لأن الاسلام يقول (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) والمسيحية تقول (عامل الناس كما تحب أن يعاملوك) واليهودية تقـول (لا توقع ما يؤذيك بالنـاس ذلك هو اب التـوراة وبقيته تعليقات) والبوذية تقـول (لا تفرض على النـاس ما يؤلمك) والكونفشية تقول (لا تنزل بالناس مالا تحب أن ينزلوه بك) والهندوسية تقول (لاتحدث بالناس ما قد يسبب لك الألم إذا حدث لك) إنتهى

ولكن ذلك كله لن يحملنا على أن نصدق أن الأديان جميعها صور مكررة فى جوهرها ومبادئها ومناهجها ودعواتها لشىء واحد لأن ذلك يقتضينا أن نلغى التاريخ وأن نلغى سنة التطور البشرى بل نلغى عقولنا فلا نستطيع أن نحكم افيما كانت تستسيغه البشرية وتهضمه فى طـور من حياتهـا بعد طور آخر ومن تطور فى الوعى والادراك إلى تطور نحو المعرفة والنضوج العقلى .

وأصدق ما نقوله فى هذا الموضوع أننا لا نستطيع أن نغفل عن مراحل

التطور البشرى إذا أردنا أن ندرس تاريخ تطور الأديان وما تحمله من مبادىء ونظم وعقائد وآراء لأن هذه الأديان وصفاتها تسير جنبا إلى جنب مع المراحل التى كان يجتازها البشر فى طريق تعقلهم وتحضرهم .

ولقد اصطنعنا نحن هذا الأسلوب العلمى المعتمد على التاريخ فى بحثنا عن كيفية تطور العقيدة فى الانسان فى فصل سابق فى هذا الكتاب وهو (هل الدين لازم للبشر) واستنتجنا معتمدين فى ذلك على الأساطير وعلى التاريخ : إستنتجنا أن العقيدة كانت تتشكل فى الانسان وتتميز فيه مع مقدار ما بلغه من وعى ورقى وإدراك . وإذاً فلا مفر لنا عندما نبحث عن مكانة الاسلام بين الأديان من أن نتعرض لدراسة البيئات التى أنزلت فيها هذه الديانات وأن نتخلل صفوفها ونتعمق إلى أغوارها لنستظهر ما كان يسودها من تقاليد وعادات وأخلاق وما كان يختمر فيها من جراثيم التقدم والرقى ، والتعطش إلى إدراك نواح جديدة من المعرفة الانسان .

وإذا كنا سنتكلم فى هذا الفصل عن مكانة الاسلام بين الأديان فليس علينا من حرج فى أن نختصر الكلام على الديانة اليهودية والمسيحية فقط وذلك لسببين وجيهين (أولا) لوفرة الديانات الوضعية وتشعبها وكثرتها كثرة ساحقة وعدم حصرها والالمام بها جميعها لضياع أكثر أصولها ومعالمها ولأن واحدة من هذه الديانات لم يعترف بها كدين عالمى مثل الأديان الكتابية (ثانيا) لأن الاسلام دين سماوى ومقتضيات البحث تفرض علينا أن نقارنه بأديان سماوية حيث يتوفر التشابه والتكافؤ والعدل فى ميزان المقارنة .

وعلى ضوء ذلك سنتعرض أولا لدراسة الديانة اليهودية ثم الديانة المسيحية ثم نقارنها بعد ذلك بالاسلام .

وأول شىء ينبغى أن نلاحظه عند دراسة الديانة اليهودية أنها أول ديانة كتابية نادت بالتوحيد الصحيح . ولكنها كانت مصطبغة بما كان يطغى على ضمير العالم حينذاك من حب للتعصب والسيطرة ومن إشادة بمبدأ الاثرة والانانية والقوة وحب الانتقام .

وإذا كانت الديانة اليهودية تنتمى إلى إبراهيم عليه السلام ومن بعده اسحاق ويعقوب ويوسف ومن دعوة هؤلاء جميعا عبادة الله الواحد الأحد فإن ذلك لم يعصم اليهود من أن تتغلب عليهم نزعة عبادة الأوثان فعبدوا عجل الذهب فى صحراء سينا بعد أن استقدمهم يوسف إلى مصر وتكتل الوطنيون المصريون ضدهم واضطهدوهم حتى خرج بهم موسى عليه السلام إلى أرض سيناء وأرسله الله إليهم وأنزل عليه ألواح الوصايا العشر التى تعتبر زبدة التوراة .

والظاهرة العجيبة التى يراها الباحث فى الديانة اليهودية أنها ديانة محلية قاصرة على بنى إسرائيل وحدهم باعتبارهم كما يزعمون (شعب الله المختار) وأنها يسودها وتتغلب عليها روح الحرب والبطش وسفك الدماء حتى وصفو إلههم بما كان ينطبع فى نفوسهم ويتحكم فى عقولهم وأخلاقهم ونظرتهم للحياة من أنه غيور شديد المقت سريع الغضب متعطش إلى سفك الدماء .

وهذا يثبت لنا بوضوح ماذهبنا إليه من أن الديانات تفسر على ضوء ما بلغته الأمة من وعى وتطور وإدراك .

وغاية ما نقوله فى موضع دراسة الديانة اليهودية وفى البيئة التى بحثت فيها أن تشريعها ونظمها وتعاليمها التى دعت إلى الأخذ بها والعمل بمقتضاها لم تكن عامة للإنسانية جميعاً ليراعى فيها تعدد البيئات والجنسيات وسنة التطور والوعى العام وإنما كانت هذه التشريعات والتعاليم والنظم خاصة ببنى إسرائيل وحدهم وهى صريحة فى ذلك كل الصراحة متعصبة من أجل ذلك كل التعصب .

والذى نلاحظه أيضا أنها كانت بمثابة ارهاص لغيرها من الديانات الآتية لمعرفة التوحيد الصحيح وأنها كانت بمثابة فلسفة تقريرية تلون اتباعها بلون جديد وتوجههم نحو طريق مرسوم يحتاج إلى تكملة وإلى امتداد واتصال ولذلك ظل بنو إسرائيل ينتظرون ديانة أخرى تكمل ما بدءوه وتوضح ما آمنوا به .

بل لذلك نرى أن هذه الديانة لم تنطبع فى نفوسهم بطابعها الصحيح وإنما هم

قد عبدوا الأوثان بعد دعوة أنبيائهم لهم بالتوحيد الصحيح ولم يخلصوا من عبادتها إلا حين بعث الله فيهم موسى عليه السلام وان كانت عبادتهم لله الواحد الأحد لم تستقم على وجهها الصحيح الذى دعاهم إليه موسى عليه السلام لأنهم وصفوا الله بأوصاف ليست من دعوة نبيهم فى شىء ولا تتفق مع وحدانيته سبحانه وتعالى فلقد وصفوه بما كان يتفق وإدراكهم ونظرتهم للحياة وما طبع فى نفوسهم من حب للحرب والصراع والغيرة والأنانية .

والذى هو جدير بالملاحظة بعد ذلك أن بنى إسرائيل بعد أن استولت عليهم فكرة دخول أرض الميعاد والسيطرة على العالم لم يلبثوا أن دخلوا أرض الميعاد حتى نازع بعضهم بعضاً السلطان وحتى كاد بعضهم لبعض وقام بينهم صراع نبه إليهم المواطنين من الأمم الأخرى الذين يعمرون هذه الأرض فاتحدوا ضدهم وقامت بينهم حرب شديدة حتى استطاع طيطس فى النهاية أن يغلبهم على أمرهم وأن ينتقم منهم انتقاماً مراً قاسياً فعمل على تشتيتهم فى جميع أنحاء الأرض ومنذ ذلك الوقت لم تقم لهم دولة أبداً .

وقد جاء فى مقدمة ابن خلدون مايلى :-

« بقى بنو إسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربعمائة سنة لا يعتنون بشىء من أمر الملك إنما همهم إقامة دينهم فقط وكان القائم به بينهم يسمى الكوهن كأنه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقربان ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه لأن موسى لم يعقب ثم اختاروا لإقامة السياسة التى هى للبشر بالطبع سبعين شيخاً كانوا يتلون أحكامهم العامة والكوهن أعظم منهم رتبه فى الدين وأبعد عن شغب الأحكام واتصل ذلك فيهم إلى أن استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة للملك فغلبوا الكنعانيين على الأرض التى أورثهم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه فحاربتهم أمم الفلسطين والكنعانيين والأرمن وأردن وعمان ومارب ورئاستهم فى ذلك راجعة إلى شيوخهم وأقاموا على ذلك نحواً من أربعمائة سنة ولم تكن بهم صولة الملك

وضجر بنو طالوت وغلب الأمم وقتل جالوت ملك الفلسطين ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهما واستفحل ملكه وامتد إلى الحجاز ثم أطراف اليمن ثم إلى أطراف بلاد الروم ثم افترق الأسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العصبية فى الدول كما قدمناه إلى دولتين كانت إحداهما بالجزيرة والموصل للأسباط العشرة الأخرى بالقدس والشام لبنى يهوذا وبنيامين ثم غلبهم بخت نصر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك أولا الأسباط العشرة ثم ثانيا بنى يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم ونقلهم إلى أصبهان وبلاد العراق إلى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول للكهنة فقط والملك للفرس ثم غلب الإسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود فى مملكتهم ثم فشل أمر اليونانيين فاعتز اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بنى حشمناى وقاتلوا يونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا إلى بيت المقدس وفيها بنو هيردوس أصهار بنى خشمناى وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة ثم افتتحوها عنوة وأثخنوا فى القتل والهدم والتحريق وخربوا بيت المقدس وأجلوهم عنها إلى رومة وما وراءها وهو الخراب الثانى للمسجد ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى فلم يقم لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك فى مملكة الروم من بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن »

ولقد تكلم الأستاذ محمد غلاب فى كتابه (الفلسفة الشرقية) عن الديانة اليهودية متعرضاً لدراستها مسهبا فى شرح أغراضها وما كونته من فلسفة مقارناً ذلك بما سبقها من فلسفات شرقية أخرى وبما أتى بعدها من ديانات سماوية كالدين الإسلامى مثلا قال الأستاذ غلاب :-

« إن الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام والتى اصطلح المسيحيون على تسميتها بالعهد القديم وهى : سفر التكوين - وسفر الخروج - وسفر

اللاويين ـ وسفر العدد ـ وسفر التثنية .

ولقد أجمع المؤرخون على أن موسى لم يكتب هذه الأسفار وإنما كتبت بعد موته بعدة قرون لا تعرف بالضبط كما لا يعرف كاتبها الحقيقى وقد ذهب بعضهم إلى أنه بدى فيها حوالى القرن الثامن أو السابع وأنها لم تتم إلا فى القرن الخامس وأن بعضها لهذا قد أصابه التأثير البابلى لأنه كتب بعد المنفى »

ثم تابع الأستاذ غلاب كلامه فقال :-

« إذا تصفحنا الأسفار الموسوية الخمسة لم نجد فيها أثراً لخلود النفس ولا للحياة الأخرى على النحو الذى نجده مثلا فى القرآن يصور لنا (أن كل نفس بما كسبت رهينة وأن لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فإن تعمل فى الدنيا مثقال ذرة من خير أو شر تره فى الآخرة مماثلا لما عملته تماما وإنما نرى جميع الموتى عند العبرانيين تكدس أشباحهم فى مكان مظلم سحيق يطلق عليه إسم شؤول على نحو الجحيم العام الذى أشرنا إليه حين عرضنا للديانة الكلدانية وأدهى من ذلك أننا إذا تصفحنا الدعاء الذى وجهه الملك (إزيكياس) وهو مريض إلى إلهه وجدناه يقول له فيه (اشفنى) لأنه ليس « شؤول » هو الذى يمدحك ولا الموتى هم الذين يثنون عليك فإن الذين ينزلون فى الحفرة لا يعتمدون على وفائك وإنما الأحياء هم وحدهم الذى يمدحونك كما أفعل أنا اليوم .

ولا ريب أن هذا مصير ساذج لا يتعلق مع تقدير الفرق بين الأخيار والشريرين ولا مع العدالة الإلهية التى ينبغى أن تثيب الأولين وتعاقب الآخرين على أفعالهم وهو ـ فوق ذلك ـ جانب نقص هام فى الفلسفة العبرانية يفقدها ناحية من أخطر نواحيها وينزلها إلى مصاف الفلسفات الأولية الساذجة .

ولقد جاء فى كتاب (الملل والنحل) للشهرستانى وصف لليهود وتحقيق لما كانوا عليه ونحن نثبته فيما يلى (اليهود خلاصة هاد الرجل أى رجع وتاب وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام (إنا هدنا إليك) أى رجعنا وتضرعنا وهم أمة موسى وكتابهم التوراة وهو أول كتاب نزل من السماء أعنى أن ما كان نزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء ما كان يسمى كتاباً بل صحفا وقد

ورد فى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ان الله تعالى خلق آدم بيده وخلق جنة عدن بيده وكتب التوراة بيده » فأثبت لها اختصاصاً آخر سوى سائر الكتب وقد اشتمل ذلك على أسفار فيذكر مبتدأ الخلق فى السفر الأول ثم يذكر الأحكام والحدود والأحوال والقصص والمواعظ والاذكار فى سفر سفر وأنزل عليه أيضاً الألواح على شبه مختصر ما فى التوراة يشتمل على الأقسام العلمية والعملية قال عز ذكره (وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة) إشارة إلى تمام القسم العلمى وتفصيلا لكل شيء إشارة إلى تمام القسم العملى .

قالوا كان موسى قد أفضى بأسرار التوراة والألواح إلى يوشع بن نون وصيه من بعده ليفضى إلى أولاد هارون لأن الأمر كان مشتركا بينه وبين أخيه هارون إذ قال (واشركه فى أمرى) وكان هو الوصى فلما مات هارون فى حياته انتقلت الوصاية إلى يوشع بن نون وديعة فليوصلها إلى شبير وشبر ابنى هارون قراراً وذلك أن الوصية والامامة بعضها مستقر وبعضها مستودع .

واليهود تدعى أن الشريعة لا تكون إلا واحدة وهى ابتدأت بموسى وتمت به فلم يكن قبله شريعة إلا حدود عقلية وأحكام مصلحية ولم يجيزوا النسخ أصلا قالوا فلا يكون بعده شريعة أخرى لأن النسخ فى الأوامر بداء ولا يجوز البداء على الله ومسائلهم تدور على جواز النسخ ومنعه وعلى التشبيه ونفيه والقول بالقدر والجبر وتجويز الرجعة وإحالتها أما النسخ فكما ذكرنا وأما التشبيه فلأنهم وجدوا التوراة ملئ من المتشابهات مثل الصورة والمشافهة والتكلم جهرا والنزول عند طور سيناء انتقالا والاستواء على العرش استقراراً وجواز الرؤية فرقاً وغير ذلك وأما القول بالقدر فهم مختلفون فيه حسب اختلاف الفريقين فى الاسلام فالربانيون فيهم كالمعتزلة فينا والقراءون كالمجبرة والمشبهة وأما جواز الرجعة فإنما وقع لهم من أمرين أحدهما حديث عزير إذ أماته الله مائة عام ثم بعثه والثانى حديث هارون عليه السلام إذ مات فى القبة وقد نسبوا إلى موسى قتله . . . قالوا حسده لأن اليهود كانت إليه أميل منهم إلى موسى

واختلفوا فى حال موته فمنهم من قال مات وسيرجع ومنهم من قال غاب وسيرجع واعلم أن التوراة قد اشتملت بأسرها على دلالات وآيات تدل على كون شريعة المصطفى عليه السلام حقا وكون صاحب الشريعة صادقا بله ما حرفوه وغيروه وبدلوه إما تحريفاً من حيث الكتابة والصورة وإما تحريفاً من حيث التفسير والتأويل وأظهرها ذكره إبراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل ودعاؤه فى حقه وفى ذريته وإجابة الرب تعالى إياه « أنى باركت على اسماعيل وأولاده وجعلت فيهم الخير كله وسأظهرهم على الأمم كلها وسأبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتى »

واليهود يعترفون بهذه القصة إلا أنهم يقولون أجابه بالملك دون النبوة والرسالة . وقد الزمتهم أن الملك الذى سلمتم أهو ملك بعدل وحق أم لا . فإن لم يكن بعدل وحق فكيف يمن على إبراهيم بملك فى أولاده هو جور وظلم وان سلمتم العدل والصدق من حيث الملك فالملك يجب أن يكون صادقاً على الله تعالى فيما يدعيه ويقوله وكيف يكون الكاذب على الله تعالى صاحب عدل وحق إذ لا ظلم أشد من الكذب على الله تعالى فى تكذيبه تجويزه وفى التجويز رفع المنة بالنعمة وذلك خلف .

ومن العجب أن فى التوراة أن الأسباط من بنى اسرائيل كانوا يراجعون القبائل من بنى اسماعيل ويعلمون أن فى ذلك الشعب علما لدنيا لم تشتمل التوراة عليه وورد فى التواريخ أن أولاد اسماعيل كانوا يسمون آل الله وأهل الله وأولاد اسرائيل آل يعقوب وآل موسى وآل هارون وذلك كسر عظيم .

وقد ورد فى التوراة أن الله تعالى جاء من طور سيناء وظهر بساعير وعلن بفاران وساعير جبال بيت المقدس الذى كان مظهر عيسى عليه السلام وفاران جبال مكة التى كانت مظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم ولما كانت الأسرار الإلهية والأنوار الربانية فى الوحى والتنزيل والمجيء أشبه بالمبدأ والظهور بالوسط والاعلان بالكمال عبرت التوراة عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل بالمجيء على ظهور سيناء وعن طلوع الشمس بالظهور على ساعير وعن البلاغ إلى درجة

الكمال والاستواء بالإعلان على فاران وفى هذه الكلمة اثبات نبوة المسيح والمصطفى عليه السلام وقد قال المسيح فى الانجيل (ما جئت لأبطل التوراة بل جئت لأكملها قال صاحب التوراة النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والجروح قصاص وأقول إذا لطمك أخوك على خدك الأيمن فأدرله خدك الايسر)

والشريعة الاخيرة (يعنى شريعة الاسلام) وردت بالأمرين جميعاً أما القصاص ففى قوله تعالى (كتب عليكم القصاص) وأما العفو ففى قوله (وأن تعفوا أقرب للتقوى) فى التوراة أحكام السياسة الظاهرة العامة وفى الانجيل أحكام السياسة الباطنة الخاصة وفى القرآن أحكام السياستين جميعا « ولكم فى القصاص حياة » إشارة إلى تحقيق السياسة الظاهرة « خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين » إشارة إلى تحقيق السياسة الباطنة الخاصة وقد قال عليه السلام « هو أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك » انتهى

ولعلنا بعد ذلك نكون قد وفقنا إلى أن نعطيك صورة صحيحة عن الديانة اليهودية وعن الظروف التى أحاطت بها وعن البيئة التى نبتت فيها وعما اكتنفها بعد ذلك من عقائد ومبادىء فى هذا القدر الضيق الذى سمح به الموضوع والذى سمحت به عدد صفحات الكتاب وليس يعنينا شىء بقدر ما يعنينا أن نعرف مكانة الإسلام من هذه الديانة . وأن نحاول أن نوجد مقارنة صحيحة لما بينها من تشابه ولما بينها من فروق واختلافات ولكنا سنرجىء هذه المقارنة إلى أن نتحدث عن الديانة المسيحية وأن نلم بالبيئة التى احتضنتها وبالتطورات التى أتت نتيجة لها .

ظهرت المسيحية فى أول أمرها ضعيفة مضطهدة ضئيلة الشأن وإن كان قد سبق ظهورها وجود فلسفة حية قوية اصطنعها فلاسفة من اليهود تبحث فى الروحانيات وتؤمن بحقيقتها ووجودها إلا أن وجود هذه الفلسفة لم تكن من العوامل التى ساعدت على نشر دعوة المسيح الروحانية ولم تحل دون اضطهاده وتشتيت أتباعه وذلك لأن المسيح جاء يدعو بنى إسرائيل إلى ديانة جديدة تخالف ديانتهم

العبرانية فى الجوهر والمظهر والروح وإن كانت لم تعمل على بطلانها قال المسيح لليهود (ما جئت لأبطل التوراة بل جئت لأكملها قال صاحب التوراة النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والجروح قصاص وأنا أقول إذا لطمك أخـرك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر) وقال لهم أيضاً (أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس أنظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصـد ولا تخزن وأبوكم السماوى يقوتها ألستم أنتم أحرى بالتفضيل عليهـا . من منكم إذا أهتم يستطيع أن يزيد على ما قـدر ذراعاً واحدة. تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو وهى لا تتعب ولا تغزل وسليمان فى كل مجده لا يلبس كواحـدة منهـا فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليـوم ويطرح غداً فى التنور يلبسه الله ذلك اللبـــاس أفليس أحرى أن يلبسكم أنتم يا قليلى الايمان)

وعلى هذا النمط من الايثار ومن الروحانية الصافيةالخالصة كان المسيح يخاطب بنى إسرائيل وكان يحاول أن يلغى من نفوسهم الأثرة والأنانية وحب الذات وهذا التعصب الأعمى حتى فى العبادة وحتى فى وصفهم للإله لانهم كانوا كما قال الاستاذ العقاد فى كتابه الله (كانت للشعوب آلهة يؤمن الاسرائيليون بوجودها ولـكنهم يحرمون عبادتها كتحريم الانتساب إلى دولة أجنبية فرب الشعب أحق بولائه وعبادته من الأرباب الأخرى)

وكما قال أيضاً :-

« وظلوا إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ينسبون إلى الإله أعمال الانسان وحركاته فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة وأنه يصارع ويأكل ويشرب ويغشى مركبات الجبال وأنه دفن حينما مات فى موآب »

وكما قلنا فى أول هذا الفصل وفى الفصل الذى قبله من أنه ينبغى لمن يتعرض لدراسة الديانات ومراحل تطـــورها أن لا يغفل البته عن مراحل التطور البشرى كذلك . لان التطور فى الاثنين يسير جنبا لجنب فلا يكادان ينفصلان ولا يختلفان . . . ويصح لنا أن نقول هنا ان هذه الظاهرة فى وجود

الدعوة المسيحية محققة من غير شك لأنها جاءت عامة مصححة للدعوة اليهوديه عاملة على ايجاد نوع من الارتباط والتعاون الانسانى ونكران الذات وحب الائتلاف . فلقد قامت الأخلاق اليهودية والفلسفة العبرية على أسس من الانانية . ومن المصالح الشخصية ومن حب المادة والتكالب عليها بكافة الوسائل وبشتى السبل وكان العالم فى طريقه نحو الرقى بل كان علماء اليهود أنفسهم يحسون بأنهم فى حاجة شديدة إلى دعوة أخرى ترشدهم الى طريق الحق والى سواء السبيل .

ونزلت الديانة المسيحية بقوانين أخلاقية جديدة مخالفة كل المخالفة لأخلاق اليهود ونزعاتهم وتفكيرهم فآمن بها أول الأمر أقلية منهم شأن كل دعوة جديدة تخالف ما ألفه الناس من تقاليد وعادات وأخلاق ورثوها عن آبائهم وأجدادهم وإن كانت تحس فى قرارة نفسها بأن الدعوة الجديدة حق وخير وصدق إلا أن الطبيعة البشرية من العسير عليها أن تنفض عن نفسها أثر العادات والتقاليد التى ورثتها عن آبائها وأجدادها ونشئت عليها من طفولتها وانطبعت فى نفوسها وترعرعت وهى ترعاها وتعمل بمقتضاها .

نعم من العسير على الطبيعة البشرية أن تلغى كل ذلك طفرة واحدة وفى غمضة عين وانتباهتها وبمجرد وصول الدعوة إليها ومخاطبتها لها عن طريق العاطفة أو العقل وعندنا أكبر شاهد على ذلك وهو موقف عمر بن الخطاب من الاسلام فى أول الأمر ومخاصمته له خصاماً عنيفاً شديداً وثورته عليه ثورة طاغية كان يخشاها كثير من المسلمين ثم موقفه منه بعد أن فهم الاسلام على حقيقته وآمن به واتبع هداه وكان أكبر سند له وأعظم مجتهد فيه وثانى الخلفاء الراشدين بعد النبى عليه السلام .

ولو تعمقنا فى البحث فى أصول هذه الديانة المسيحية الهادئة فى المظهر والمسالمة فى الطبيعة لوجدناها كانت ثورة عنيفة خطيرة هزت الانسانية من أساسها وعملت على تحطيم قوانينها التربوية والأخلاقية التى اصطلحت عليها أجيالا بعد أجيال وتهادنت على العمل بها من أزمان غابرة سحيقة فى البعد .

والمنصف فى الحكم على الأشياء والنفسيات والحوادث لا يتوانى لحظة عن أن يقرر فى ثقة وقوة بأن هذه الديانة بمبـــادئها الروحية الخالصة كانت من ألزم اللوازم للإنسانية فى مرحلتها تلك . وكانت تتفق مع طريق تطورها وسيرها نحو الرقى والنهـــوض لأن المسيحية جاءت وقد سبق مجيئها مذاهب عديدة للفلسفة ، وتشريعات قانونية فى غاية من الاجتهاد تنظم حقوق الأفراد والجماعات وواجباتهم نحو أنفسهم ونحو الدولة ثم ما بينهم بعد ذلك من علاقات .

نعم جاءت المسيحية فوجدت العالم لا تنقصه تنظيم وسائله المادية التى برع فيها واجتهد وجدد مثل ما تنقصه بواعث الروحانية التى كان ضاربا بينه وبينها سدا منيعا وحائلا لا يمكن أن يقتحم وإن كان يلوح له أنه فى حاجة شديدة ملحة إليها فانجهت بكل قواها إلى إحياء المبادىء الروحية فى الانسان، وحاولت بكل ما تستطيع من وسائل أن تقيم دعائم الناموس وأسس الدعوة الإلهية على قواعد صحيحة ، وأن تكيف ذلك كله بما كان يتفق وطبيعة الأشياء لأن التغالى والاسراف فى المادية يستتبع حتما التغـالى والاسراف فى الروحية ليتلاقيا فى النهاية مع بعض ويسيرا نحو الغاية جنبا إلى جنب .

وهكذا جاءت الديانة المسيحية لتعالج المشكلة الانسانية من ناحيتها الطبيعية فكانت كما قلت ثورة على قوانينها الأخلاقية وما اصطنعته لنفسها من تقـاليد وعادات كلها ترمى إلى تحبيذ شريعة الغابة حيث كل شىء للقوى ولا شىء للضعيف حتى أننا نجد القانون الرومانى وإن كان من غير شك قد أخذ بيد الانسانية إلى الأمام وقد عمل على وجود شىء من العدالة وتنظيم الحقـوق والواجبات بين الناس بعضهم بعضا إلا أنه كان يحتفظ بحقوق خاصة لطبقة من الناس دون طبقة أخرى وكان يشرع الاستعباد والاستعباد ولم يكن يؤمن بالتساوى بين الدولة الرومانية وغيرها من الأمم الأخرى .

فلما جاءت المسيحيـة لا تقر هذا الوضع وتؤمن بالتسـاوى فى الحقـوق والواجبـــات وفى كل شىء آخر حدث بينهـــا وبين هذا القانون اصطدام أدى إلى انكماشـــه .

والخلاصة التى نخرج بها من دراستنا للديانة المسيحية أنها نشأت فى أول أمرها ضئيلة نحيلة اعتنقها أفراد معدودون من اليهود ولما توالت عليهم الاضطهادات فى ديارهم هاجر فريق منهم إلى الأسكندرية حيث اتصلوا بمدرستها الشهيرة فتأثروا بها وأخذوا عنها وكونوا لهم فلسفة خاصة وذهب بعضهم الآخر إلى روما حيث أخذوا يعملون على نشر الدعوة التى كانت قاصرة على اليهود فى أول الأمر حتى دعا القديس بولس الرسول غيرهم من الناس إلى دخولها بنفس الامتيازات والحقوق التى لليهود وقد اعتنقها من الرومانيين أناس معدودون أيضا كانت تتوالى عليهم الاضطهادات المروعة والتعذيب الوحشى كأبشع ما يتصور الانسان ولكن ذلك لم يمنع هذه الديانة من الانتشار ولم يفت فى عضد المؤمنين بها فظلوا على عقيدتهم متمسكين بها داعين غيرهم من الناس إلى الايمان بها حتى أضحت الكثرة الساحقة من الرومانيين من المؤمنين بها العاملين لها مما حمل الأمبراطور « اغسطنطين » إلى أن يعلن المسيحية دينا رسميا للدولة وحمل الناس على الإعتقاد والإيمان بها بالحديد والنار وبوسائل غاية فى الوحشية والقسوة .

ومن هنا تلونت المسيحية بلون جديد ، وأخذت تنطبع فيها كل ظاهرة من ظواهر الاجتماع والتفكير الرومانى وحاولت أن تلون أصول القانون الرومانى بلونها وقد نجحت فى ذلك بعض الشىء ولكنها اصطدمت به آخر الأمر وقضت عليه قضاء لا تسامح فيه .

وإذا كانت الديانة اليهودية بل حتى الديانات الوضعية لم تخل من النظام « الكهنوتى » إلا أن المسيحية قد أخذت بهذا النظام وأسرفت فى الأخذ به غاية الاسراف حتى أن البابا كان يلقب نفسه بأنه ممثل الله على الأرض وكان بيده منح الثواب والعقاب وأعطى لنفسه السلطة على كل شىء لا يختص بالدين وحده وإنما يختص بكل الأمور الدنيوية أيضا واضحت الديانة المسيحية التى كانت مسالمة بطبيعتها رحيمة فى نفسها . أضحت كنظام دكتاتورى قاس لا يعرف هوادة ولا رحمة ولا رفقا ، وأصبح البابا وحاشيته أشبه بالقياصرة فى ترفهم وتكالبهم الشديد على اقتناء القصور والضياع وارتجاع المال من أى سبيل وذلك

لاشباع شهواتهم النهمة الجائعة مخالفين فى ذلك قول المسيح عليه السلام « الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غنى ملكوت السموات . وأقول لكم أيضا إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله »

وظل الحال على ذلك ولم تستطع المسيحية أن تخفف بعض الشىء من تعنت البابا وقسيسيه إلا بعد أن طالب « البروتستانت » بإبطال السلطة على غفران الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الأخروية وإبطال عبادة الصور .

ونحب قبل أن نترك موضوع الديانة المسيحية لننتقل بك الى دراسة الاسلام أن نقرئك ما قاله « الشهرستانى » فى كتابه الملل والنحل عنها قال :-

« النصارى أمة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وهو المبعوث حقا بعد موسى عليه السلام المبشر به فى التوراة وكانت له آيات ظاهرة وبينات زاهرة مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه وذلك حصوله من غير نطفة سابقة وخلقه من غير تعليم سالف وجميع الأنبياء بلاغ وحيهم أربعون سنة وقد أوحى اليه انطلاقا فى المهد وأوحى اليه ابلاغا عند الثلاثين وكانت مدة دعوته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ولما رفع إلى السماء اختلف الحواريون وغيرهم فيه وإنما اختلافاتهم تعود إلى أمرين أحدهما كيفية نزوله واتصاله بأمه وتجسد الكلمة والثانى كيفية صعوده واتصاله بالملائكة وتوحد الكلمة أما الأول فقضوا بتجسد الكلمة وهم فى كيفية الاتحاد والتجسد كلام ، فمنهم من قال : أشرق على الجسد اشراق النور على الجسم المشف ، ومنهم من قال : انطبع فيه انطباع النقش فى الشمعة ، ومنهم من قال : ظهر به ظهور الروحانى بالجسمانى ، ومنهم من قال : تضرع اللاهوت بالناسوت ، ومنهم من قال : مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن الماء وأثبتوا لله تعالى أقانيم ثلاثة : قالوا البارى تعالى جوهر واحد يعنون به القائم بالنفس لا التحيز والجسمية فهو واحد بالجوهرية ثلاثة بالاقنومية ويعنون بالأقانيم الصفات كالوجود والحياء والعلم والاداب والابن وروح القدس وإنما العلم تضرع وتجسد دون سائر الأقانيم وقالوا فى الصعود أنه قتل وصلب . قتله

اليهود حسداً وبغياً وانكاراً لنبوته ودرجته . ولكن القتل ما ورد على الجزء اللاهوتى وإنما ورد على الجزء الناسوتى : قالوا وكمال الشخص الإنسانى فى ثلاثة أشياء نبوة وإمامة وملكة ، وغيره من الأنبياء كانوا موصوفين بهذه الخصال الثلاث أو ببعضها والمسيح عليه السلام درجته فوق ذلك لأنه الإبن الوحيد فلا نظير له ولا قياس له إلى غيره من الأنبياء وهو الذى به غفر زلة آدم عليه السلام وهو الذى يحاسب الخلق. ولهم فى النزول خلاف فمنهم من يقول ينزل قبل يوم القيامة . كما قال أهل الاسلام ، ومنهم من يقول لا نزول له إلا يوم الحساب . وهو بعد أن قتل وصلب نزل ورأى شخصه شمعون الصفا فكلمه وأوصى إليه ثم فارق الدنيا وصعد إلى السماء وكان وصية شمعون الصفا وهو أفضل الحواريين علما وزهدا وأدبا غير أن (فولوس شوش) أمره وصير نفسه شريكا له وغير أوضاع علمه وخلطه بكلام الفلاسفة ووسوس خاطره . ورأيت رسالة « لفولوس » كتبها إلى اليونانيين : إنكم تظنون أن مكان عيسى عليه السلام كمكان سائر الأنبياء وليس كذلك بل إنما مثله مثل « ملكيز داق » وهو ملك السلام الذى كان إبراهيم عليه السلام يعطى إليه العشور فكان يبارك على ابراهيم ويمسح رأسه ، ومن العجب أنه نقل فى الأناجيل أن الرب تعالى قال إنك أنت الوحيد ومن كان وحيداً كيف يمثل بواحد من البشر ثم إن أربعة من الحواريين اجتمعوا وجمع كل واحد منهم جمعاً الإنجيل وهم « متى . ولوقا . ومارقوس . ويوحنا » وخاتمة انجيل متى أنه قال « إنى أرسلكم إلى الأمم كما أرسلنى أبى اليكم فاذهبوا وأدعوا الأمم باسم الرب والابن وروح القدس » وفاتحة انجيل يوحنا « على القديم الأزلى قد كانت الكلمة وهو ذا الكلمة . كانت عند الله والله هو كان الكلمة . وكل كان بيده » انتهى

وكتب ابن خلدون فى مقدمته وصفا للمسيحيين نعتقد أن فى قراءته وفى الالمام به بعض الفائدة ونحن نثبته لك فيما يلى :-

جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به « أى اليهود » من

الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثرهم الحواريون من أصحابه وكانوا اثنى عشر وبعث منهم رسلا إلى الآفاق داعين إلى ملته وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القياصرة وفى مدة هيرودس ملك اليهود الذى انتزع الملك من بنى حشمناى أصهاره فحسده اليهود وكذبوه وكاتب هيرودس ملكهم ملك القياصرة أوغسطس يغريه به فأذن لهم فى قتله ووقع ما تلاه القرآن من أمره وافترق الحواريون شيعا ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين إلى دين النصرانية وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة ثم كتبوا الانجيل الذى أنزل على عيسى صلوات الله عليه فى نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فكتب متى إنجيله فى بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدى منهم إلى اللسان اللاتينى وكتب لوقا منهم إنجيله باللاتينى إلى بعض أكابر الروم وكتب يوحنا بن زبدى منهم إنجيله برومة وكتب بطرس إنجيله باللاتينى ونسبه إلى مرقاص تلميذه واختلفت هذه النسخ الأربع من الانجيل مع أنها ليست كلها وحيا صرفا بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الحواريين وكلها مواعظ وقصص والأحكام فيها قليلة جدا واجتمع الحواريين الرسل لذلك العهد برومة ووضعوا قوانين الملة النصرانية وصيروها بيد أقليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التى يجب قبولها والعمل بها فمن شريعة اليهود القديمة التوراة وهى خمسة أسفار وكتاب يوشع وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا وأسفار الملوك أربعة وسفر بنيامين وكتب المقابيين لابن كريون ثلاثة وكتاب عزرا الامام وكتاب أوشير وقصة هامان وكتاب أيوب الصديق وبزامير داود عليه السلام كتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونبوات الأنبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان ومن شريعة عيسى صلوات الله عليه والمتلقاه من الحواريين نسخ الانجيل الأربع وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الابريكسيس فى قصص الرسل وكتاب بولس أربع عشرة رسالة وكتاب أقليمنطس وفيه الأحكام وكتاب أبوغالمسيس

وفيه رؤيا يوحنا بن زبدى واختلف شأن القياصرة فى الأخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها ثم تركها أخرى والتسلط عليهم بالقتل والبغى إلى أن جاء قسطنطين وأخذ بها واستمروا عليها وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسيمه يسمونه البطرك وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم يبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بعدعنه من أمم النصرانية ويسمونه الأسقف أى نائب البطرك ويسمون الإمام الذى يقيم الصلوات ويفتيهم فى الدين بالقسيس ويسمون المنقطع الذى حبس نفسه فى الخلوة للعبـــادة بالراهب وأكثر خلواتهم فى الصوامع وكان بطرس الرسول رأس الحواريين وكبير التلاميذ بروميه يقيم بها دين النصرانية إلى أن قتله نيرون خامس القياصرة فيمن قتل من البطارقة والأساقفة ثم قام بخلافته فى كرسى رومة آريوش وكان مرقاس الانجيلى بالاسكندرية ومصر والمغرب داعياً سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطاركة فيها وجعل معه اثنى عشر قسا على أنه إذا مات البطرك يكون واحد من الاثنى عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحدا مكان ذلك الثانى عشر فكان أمر البطاركة إلى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم فى قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا بنيقية أيام قسطنطين لتحرير الحق فى الدين واتفق ثلاثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأى واحد فى الدين فكتبوه وسموه الامام وصيروه أصلا يرجعون إليه وكان فيما كتبوه أن البطرك القائم بالدين لا يرجع فى تعيينه إلى اجتهاد الأقسة كما قرره حنانيا تلميذ مرقاص وأبطلوا ذلك الرأى وإنما يتقدم عن بلاء واختبار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبقى الأمر كذلك ثم اختلفوا بعد ذلك فى تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات فى تقريره ولم يختلفوا فى هذه القاعدة فبقى الأمر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطاركة وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب أيضاً تعظيما له فاشتبه الاسم فى أعصار متطاولة يقال آخرها بطركية هرقل بإسكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف فى التعظيم فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الإسم أول ظهوره بمصر على زعم جرجيس بن العميد فى تأريخه ثم نقلوه إلى صاحب الكرسى الأعظم

عندهم وهو كرسي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمة عليه حتى الآن ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائف وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلفت الحال في العصور في ظهور فرقة دون فرقة إلى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هي فرقهم ولا يلتفتون إلى غيرها وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية ثم اختصت كل فرقة منهم ببطرك فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على رأي الملكية ورومة للإفرنجة وملكهم قائم بتلك الناحية وبطرك المعاهدين بمصر على رأي اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانيهم والحبشة يدينون بدينهم وبطرك مصر فيهم أساقفة ينوبون عنه في إقامة دينهم هنالك وأختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد ولا تسمى اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بياءين موحدتين من أسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشددة ومن مذاهب البابا عند الافرنجة أنه يحضهم على الانقياد لملك واحد يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم تحرجاً من افتراق الكلمة وبه تحرى به العصبية التي لا فرقها منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الانبرذور (أي الأمبراطور) انتهى

هذا الذي قدمناه لك دراسة خفيفة عن الديانتين اليهودية والمسيحية نعترف أننا لم نسهب في دراستها كل الاسهاب وإن كنا قد أبرزنا لك مشخصاتها والظروف التي أحاطت بها. والبواعث التي كمنت فيها وما اكتنفها من عوامل الانحراف والفسوق عن طريقها الطبيعي ولم يبق إلا أن نأخذ في دراسة الديانة الاسلامية.

والاسلام دين عام وتشريع سماوي اعتمد على المنطق وعلى مخاطبة العقل وكان في حقيقته عبقريا وليقاً لأنه لم يقتصر على التشريع فقط لأمة محدودة كالديانة اليهودية، ولم يحفل إلا بالناحية الروحية فقط ولم يخاطب العاطفة والقلب والضمير وحدهم كالديانة المسيحية وإنما جمع بين الناحيتين جميعا وأراد أن يتمشى مع المرحلة التي بلغتها الانسانية: فكانت أهم ظاهرة فيه أنه من أول أمره جاء داعيا الانسانية جمعاء إليه وإلى الانضواء تحت لوائه. وأنه جاء عاملا

على التعاون والائتلاف الانسانى بطريقة عملية غاية فى الروعة والكمال فالتساوى بين الناس جميعا أهم عنصر فيه وأعظم أساس ابتنت عليه مبادئه يقول القرآن الكريم (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ويقول رسول الاسلام « لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى »

وفى الواقع إن الدين الاسلامى لو قارناه مقارنة دقيقة بالديانتين السابقتين غير غاضين النظر عن مراحل التطور البشرى لكان ذلك كافيا وحده على صدقه واعجازه واحتياج الانسانية إليه فالدين المسيحى قد أوجد نوعا من التعاون الانسانى ولكنه كان ضئيلا وغير عملى ؛ ولا يتفق مع الادراك والوعى الانسانى لوجود النظام الكهنوتى فيه والدين المسيحى قد جاء منكرا المادة داعيا إلى الروح عاملا على الزهد والقناعة وعدم الاخذ بأى سبب من الاسباب التى فيها حرص على الدنيا وعمل لها وتنعم بها - وإن كنا قد علمنا ذلك بأنه كان علاجا طبيعيا لما كان يسيطر على طبيعة العالم حينذاك من حب للمادة وتكالب عليها واسراف فيها - غير أن الاسلام جاء منكرا لهذا النظام الكهنوتى كل الانكار فالقرآن الكريم يخاطب النبى بقوله (انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء) والرسول الكريم يخاطب أهله وذويه بقوله (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا . يابنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا . ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا . ويافاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا)

ثم إن الإسلام لم يدع إلى الزهد والقناعة وانكار الحياة الدنيا كما كان الشأن فى المسيحية فقد قال القرآن الكريم (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مغارم كثيرة وسعة) (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) وقال الرسول عليه السلام «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »

وعن أنس رضى الله عنه قال :

جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، أى عدوها قليلة ، فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال أحدهم أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً . وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »

ثم إن الطبيعة التى اتسمت بها الديانة اليهودية كانت الاشادة بمبدأ القوة والقسوة والأثرة والأخذ بأساليب ذلك والاسراف والتغالى فيه بينما جاءت الديانة المسيحية على عكس ذلك فقد دعت إلى المسالمة والرحمة والتسامح والسعى للاخرة وإنما الآخرة. وترك الحقوق متى كان فى الحصول عليها قوة وشدة رخصا ما

أما الاسلام فقد جاء وسطاً معتدلا متفقا مع طبيعة النفوس ، ومع طبيعة الأشياء والحوادث فلم يستعمل القوة إلا فى المواضع التى تحتاج إلى القوة. ولم يكن شديداً صارماً إلا فى كل ما هو حق وواجب فقانونه الأخلاق قائم على ما يتفق وسيكولوجية النفوس وسيكولوجية الحوادث . وظروف الزمان والمكان . فقد أشاد بمبدأ القوة فى الأشياء والحوادث التى تحتاج فى علاجها إلى شدة وصرامة وقد حبب الرفق والتسامح والصفح فى الظروف التى توجب ذلك وأحياناً خير الانسان بين أن يأخذ بحقه أو يعفو إذا لم يكن فى ضياع حقه مضرة لنفسه أو للمجتمع . بل انه وقف أحيانا بين الانسان وبين أن يفرط فى ماله حتى ولو كان للصدقة إذا كان غير فائض عليه ومما يحتاجه لنفسه أو لأولاده فلقد روى أنه حينما كان سعد بن أبى وقاص مريضاً عاده النبي صلى الله عليه وسلم وكان عازماً على الصدقة بثلثى ماله . أو بماله كله تقرباً إلى الله فسأله النبي عما ترك لولده فقال سعد هم أغنياء فلم يقبل النبي أن يتصدق بغير

العشر وما زال يراجعه حتى رضى صلى الله عليه وسلم بالثلث وحرم الزيادة فوق ذلك وقال (الثلث والثلث كثير إنك إن وتذرو رثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس)

وهكذا كما ترى جاء الاسلام بعد أن ظهرت له ضرورة عاجلة فى تصحيح العقيدة الالهية وفى تكييف التعاليم السماوية ، وفيما ينبغى أن يتفق مع التطور الانسانى والتقدم البشرى فأخذ يعمل فى غير هوادة على لم شمل الانسانية وتقاربها وتآلفها وتعاونها ولم يجعل حوائل أو شروطاً تحول بين انسان ـ كائنا من كان ـ وبين أن يكون مسلما إلا أن يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحاً بل إنه شجع غير المسلمين على الدخـــول فيه وحببه إليهم فجعل لهم نصيبـــا فى الزكاة حيث قال الله تعـــالى « والمؤلفة قلوبهم »

بينما نرى الديانة اليهودية جاءت خاصة ببنى إسرائيل وحدهم والمسيحية فى أول أمرها نزلت لليهود فقط ولم يكن يسمح بالدخول فيها لغير اليهود حتى دعا بولس الرسول غيرهم من كافة الناس للإنضـــواء تحتها بنفس الحقوق والامتيازات التى لهم كما ذكرنا ذلك قبلا .

والشىء الذى نحب أن يسترعى اهتمامك بعد ذلك وأن تخرج به من موضوع هذه المقارنة هو أن الاســـلام جاء فوجد العالم تسيطر عليه حالة من الفوضى والتفكك لا مثيل لهـا ، وأنه فى حاجة إلى موقظ يوقظه مما هو سـادر فيه من حيرة وضلال ، ومن وجود نظام الطبقـات الذى كان آخذاً بخناقه عاملا على تقويض كل القيم الانسانية فيه .

ولقد رأينـا أن المسيحية لم تأت بتشريعـات سماوية تكون قانونا للناس يسيرون على ضوئه ؛ وإنما انتهى بها الأمر إلى أن تحارب التشريعات اليونانية والرومانية التى ورثتها عن روما بعد سيادة المسيحية عليها وأن تقف فى النهاية حجر عثرة فى سبيل تطورها ونضوجها لذلك كان العالم فى مسيس الحاجة إلى ديانة جديدة تصحح هذا الوضع وتتمشى مع الناموس الطبيعى للحيـاة حيث المادية وحدها غير قادرة على السير وحيث الروحانيـة بمفردها بغير مستطيعة

الحيش. وإنما لابد أن يجتمع الاثنان ويمتزجا ويكيفا بعضهما بعضا لأن هذا نظام الكون وقانون حياة الكائنات ! ...

ولقد نزل الاسلام على محمد بن عبد الله وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب فكان أعظم دستور للبشرية جمع فأوعى وسما بها فى فترة قصيرة إلى مكانة ممتازة من الرقى والسمو لم تكن تحلم ببلوغهـــا فى عدة قرون وكون أعظم امبراطورية ضخمة لم يعرف التـــاريخ لها مثيلا فى سرعة نموها وائتلافها وارتباطها وما سادها من عدل ومساواة وما كمن فيها من حيوية وازدهار .

جاء الاسلام خاتماً للدعوات الالهية فكان لابد أن تتوفر فى طبيعته المرونة التى تتفق والتطور الزمنى والرقى البشرى فعول فى نشر دعوته وهضمها والايمان بها على العقل فكان يخاطبه فى كل أمر من أموره ويحكمه فى كل شأن من شئونه حتى أن الرسول عليه السلام يقول (الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له)

وأمر بأنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما يتفق مع العقل وفى هذا أكبر دليل على تقديره للعقل ، وعدم مخاصمته للفلسفة أو العلم اللذين هما أثر من آثار الاجتهاد العقلى . بل إن فى هـذا لأكبر دليل على أنه ترك للعقل أن يؤول أحكامه وأوامره ونواهيه ، وأن يلونها حسب ما يتفق وطبيعة الأشياء وظروف الزمان والمكان .

قال الأستاذ الامام محمد عبده

« أجمع أهل الملة الاسلامية إلا قليلا ممن لا ينظر إليه أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه ، والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل »

وفى الواقع اننا لو تعمقنا فى البحث فى أحكام القرآن وفيما أتى به من أوامر ونواهى نجد أنه فى كل ذلك كان يرمى إلى تكوين قانون أخلاقى غاية فى الرقى والكمال . لأن العالم من ناحية الرصيد الخلقى كان مفلساً كل الافلاس ، ولم يكن

تنقصه الفلسفة التى برع فيها سقراط وتلميذاه افلاطون وارسطاليس، ولم يكن تنقصه نظريات القانون المادى وتنظيم العلاقات وسن الحقوق والواجبات التى اصطنعها علماء القانون الرومانى ، وإنما كانت هذه الفلسفة وهذا القانون فى احتياج شديد إلى تطعيم قوى بالنواحى الخلقية فأرسطو الذى وضع كتابه (الأخلاق) كان يبرر الاغارة على الأمم المتبربرة واستعبادها لأن الله لم يخلق الناس سواسية وإنما خلق بعضهم أسيادا (كاليونانيين فى رأى أرسطاليس) وبعضهم الآخر عبيداً كغير اليونانيين من الأمم والشعوب وكان القانون الرومانى أيضاً يشجع نظام الطبقات ويشرع الاستعمار لا للنهوض بالأمم المستعمرة ، وإنما للتسلط عليها واستنزاف اقتصادياتها .

فالعالم إذاً كان فى حاجة ملحة إلى نظم وقوانين تسيطر عليها الناحية الخلقية فجاء الدين الإسلامى حاملا إليه هذه الرسالة مؤديا له تلك الأهداف فيما رسمه ونادى به القرآن من قواعد ومبادىء وفيما تمثل به الرسول وصحابته من أخلاق وقاموا به من أعمال فالقرآن الكريم يخاطب النبى بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) والرسول الكريم يقول (الناس سواسية كأسنان المشط)

ولو درسنا حياته وتتبعنا أعماله كلها فإننا نجدها صفحة رائعة للخلق النبيل القويم من الوفاء والصدق والحب والإيثار التى تطفح بها كتب السيرة النبويه فلم يعرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه أعطى لنفسه امتيازاً أو سلطة فى أى شىء بل إنه كان يشاور الصحابة فى كل ما يطرأ عليهم من أمور الدنيا حيث يقول له الله (وشاورهم فى الأمر) وكثيراً ماكان رأى غيره مخالفاً رأيه فينزل على رأيهم فالبساطة والتساوى والإيثار كانت من أظهر صفات النبى عليه السلام .

يقول المفكر الأنجليزى (بوسورث سميث) فى كتابه « محمد والدين المحمدى » ترجمة الأستاذ عز الدين فراج

« إن أعجب الأمور فى حياة محمد أنه لم يدع قط القدرة على اتيان المعجزات فأيما شىء قال إنه يستطيع أن يفعله رآه أتباعه وهو يفعله ولم ينسب أحد منهم إليه معجزة من المعجزات بل إن محمداً نفسه حرص دائما على أن ينكر قدرته

على اتيانها أى دليل إذاً أقوى من ذلك على الاخلاص يمكن أن يسوقه إنسان لقد ظل محمد طيلة حياته وليس له لقب يفخر به إلا أنه نبي مرسل من عند الله . وإذا كان لأى فرد أن يدعى الحق فى تلقى الوحى من السماء فهو محمد لقد كانت له كل السلطات دون أن يكون لديه أداتها .. كذلك كانت علاقته بعثمان وعمر مشبعة بروح المودة والولاء وكان محمد عليه الصلاة والسلام عادلا مقتصداً فلم يكن يعوزه الرفق بأعدائه إذا ما دانوا له بالطاعة وقد كان دفاع مكة العتيد الطويل المدى ضد دعوته يحمل على البطش بهم بعد فتحها ولكنه أصدر عفواً عاما ملقيا بذكريات الماضى بما فيها من سخرية وإهانة واضطهاد فى زوايا النسيان وعامل أحد الأعداء له بالاكرام والسخاء ولم تكن السماحة التى أبداها عبد الله ابن أبى وأهل مكة الخارجين عليه بأقل من ذلك ظهـــوراً وهم الذين ناصبوه العداء سنين طوالا وامتنعوا عن الدخول فى طاعته .

وتحدث الكاتب الأمريكى (واشنجطون أرفنج) عن أخلاق النبى فقال :

« لقد احتفظ محمد وهو فى أوج سلطانه ببساطة الخلق التى عرفت عنه فى كل أدوار حياته وكان يكره إذا دخل مكاناً أن تؤدى له تحية غير عادية وكان لا ملجأ له فى أوقات شدته غير الصلاة والثقة بالله وعندما وقف على سرير ابنه إبراهيم ساعة احتضاره كان التسليم لارادة الله واضحا فى سلوكه بينما كان يعانى أقصى ألوان الحزن وكان عزاؤه أنه سيلتقى به ثانية يوما من الأيام فى جنة الخلد وعندما حانت ساعة وفاة محمد كان يردد صلاته ويتحدث عن دعوته وكانت كلماته التى جاءت على شفتيه تنبيه من أن يدخل ملكوت الله مع من سبقه من الأنبياء »

ولقد ذكر الأستاذ عبد المتعال الصعيدى فى كتابه (القضايا الكبرى فى الاسلام) أن عمر بن الخطاب خطب الناس يوما فنصحهم ثم قال لهم (ألا إنى والله ما أرسلت عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى فوالذى نفسى بيده إذاً لأقصنه !

فوثب عمرو بن العاص فقال :-

ياأمير المؤمنين : أفرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لمقصه ؟

فقال عمر : أى والذى نفسى عمر بيده . إذن لأقصنه منه ، أنى لا أقص منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم . ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم .

ثم تحدث الأستاذ الصعيدى عن قضية قائد مع جنده فترجم فيها عن روح الإسلام وعدله وبين ما اتصف به من مثل عليا فى المساواة بهذا الحكم وبهذا المثل الذى ضربه عمر بن الخطاب للناس ، والذى لم ير العالم له مثيلا فى تاريخ التحضر البشرى ولن يرى له مثيلا فى المدنيات الكبرى التى تزعم الرقى بالانسانية والارتفاع بها إلى مكانة من السمو والامتياز .

قال الأستاذ عبد المتعال الصعيدى (كان مع أبى موسى الأشعرى فى بعض الفتوح رجل ذو صوت ونكاية فى العدو فغنموا مغنما ، فأعطاه أبو موسى بعض سهمه فأبى أن يقبله إلا جميعا فغضب منه أبو موسى وجلده عشرين سوطا وحلق شعره .

فجمع الرجل شعره ثم ترحل إلى عمر بن الخطاب حتى قدم عليه ثم دخل عليه فأدخل يده فاستخرج شعره . ثم ضرب به صدر عمر ، فقال : أما والله لولا . . فقال عمر : صدق ، لولا النار . .

ثم ذكر الرجل قصته مع أبى موسى فقال : يا أمير المؤمنين . إنى كنت ذا صوت ونكاية فى العدو ، وقد أعطانى أبو موسى بعض سهمى ، فأبيت إلا أن آخذه جميعا فضربنى عشرين سوطا ، وحلق رأسى وهو يرى ألا يقتص منه .

فقال عمر : لأن يكون الناس كلهم على صرامة هذا أحب إلى من جميع ما أفاء الله على .

ثم كتب عمر إلى أبى موسى :

سلام عليكم ـ أما بعد ـ فإن فلانا أخبرنى بما كان منك فإن كنت فعلت ذلك فى ملإ من الناس فعزمت عليك لما قعدت له فى ملإ من الناس حتى يقتص منك وإن كنت فعلت ذلك فى خلاء من الناس فاقعد له فى خلاء من الناس حتى يقتص منك

ثم قدم الرجل على أبى موسى ، فقال له الناس . اعف عنه فقال الرجل . لا والله ، لا أدعه لأحد من الناس .

فلما قعد أبو موسى ليقتص الرجل منه ، رفع الرجل رأسه إلى السماء ثم قال اللهم قد عفوت عنه) انتهى

ثم شىء آخر من عدالة الاسلام أحب أن أعرضه عليك وهو أن جبلة ابن الأيهم ملك غسان بعد أن أسلم كان يطوف بالكعبة فى موسم الحج فوطىء رجل من فزارة طرف إزاره فانحل الازار فرفع جبلة يده وهشم أنف الفزارى فشكاه إلى عمر ولما لم يقبل العفو عنه أراد عمر أن يهشم أنف جبلة تنفيذاً للقانون الاسلامى (ولكم فى القصاص حياة) فقال جبلة كيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك ؟ فأجاب عمر :

إن الاسلام جمعك وإياه وساوى بينكما فلست تفضله بشىء إلا بالتقوى فلم يحتمل ذلك جبلة واستنصر .

ولا أحب أن أتركك دون أن أقدم لك شيئاً آخر عن سماحة عمر وتواضعه مع نفسه ، وعمله على ما فيه خير الاسلام وصالح المسلمين . وهذه الأخلاق النبيلة الرفيعة التى أخذها عن محمد ، والتى أكسبها الاسلام إياه .

فقد نقل الأستاذ العبادى فى كتابه (صور من التاريخ الاسلامى) عن الطبرى (أنه لما أتى عمر بن الخطاب نزول رستم القادسية كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى حين انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله ومنزله . قال فلما لقى البشير سأله من أين فأخبره . قال ياعبد الله ! حدثنى . قال : هزم الله العدو ، وعمر يخب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين . فقال الرجل : فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين ؟ وجعل عمر

يقـــول : لا عليك يا أخى !)

ثم تابع الأستاذ العبادى كلامه فقال :-

« ويمكن القارىء أن يدرك الدور الذى قام به عمر فى تلك الواقعة الفاصلة فهو مدير رحاها وبطلها على الحقيقة . وقد أدرك الفرس ذلك من فورهم . فيروى أن رستم لما ضرسته الحرب بنابها ووطئته بمنسمها نادى فقال بالفارسية ما تعريبه : « أتانى صوت عند الغداة ، وإنما هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل أكل عمر كبدى أحرق الله كبده »

أرأيت إذاً ما صنعه الاسلام بهؤلاء الناس البدو الرعاة . كيف جعلهم سادة العالم وقادته ، ومثله الأعلى فى الأخلاق ، والعدل ، والمساواة ، وفى كل صفة من صفات التحضر البشرى ، والرقى الانسانى .

أرأيت إذاً أن العالم وهو سادر فى فقره الأخلاقى ، وفى امتهانه للكرامة البشرية كان فى حاجة قصوى إلى رسالة الاسلام الذى جاء بأعظم قانون أخلاقى لم يتخيل أحد من الفلاسفة والمفكرين ما يفوقه فى السمو والارتفاع حتى الآن ، وأنه رد للإنسان كرامته وشعره بعزته بتساوى أفراده صغيرهم وكبيرهم فى الحقوق والواجبات ، وفى أمور دينهم ودنياهم حتى أن النبى وصحابته كانوا يعاملون موالیهم معهم على قدم المساواة ، بل كانوا يميزونهم عن أنفسهم فى أكثرهم الأحايين .

فزيد بن حارثه لم يرغب أن يترك النبى ليذهب مع أبيه إلى مكة لما خيره النبى بالذهاب مع أبيه أو العيش معه فآثر العيش مع النبى وذلك لما لقيه منه من معاملة حسنة ، ومن رعاية تفوق عاطفة الأبوة ومن مساواة له مع نفسه ، ومع صحابته حتى أنه قلد ابنه أسامة قيادة جيش المسلمين إلى الشام وفيه من عظماء قريش ، ومن أكابر الصحابة العدد الوفير .

وعمر بن الخطاب لما ذهب ليعقد معاهدة مع أهل الشام استصحب معه قبقا له فكان يركب هو مرحلة ثم ينزل ويأمر رقيقه بالركوب ويمشى خلفه

ولما وصل إلى دمشق كان الدور فى الركوب لغلامه فدخل دمشق على هذه الصورة ولم ير فى ذلك عيبا ولا غضاضه .

وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه اشترى ثوبين أحدهما أكثر ثمنا من الآخر فأعطى لرقيقه الأثمن وأخذ لنفسه الآخر فقال له رقيقة (أنت يامولاى أحق بهذا الثوب) فقال له (كلا إنك شاب وأما أنا فقد هرمت)

وربما يسألنا سائل : مابال الاسلام وهذه أخلاقه ومبادئه فى المساواة والايثار لم يلغ الرق ، ولم يحرمه بل أقره ؟

وجوابنا : أنه لا يعاب على الاسلام عدم إلغائه للرق صراحة وذلك لأنه جاء فوجده عنصراً طبيعيا من مقومات حياة العالم ودعامة قوية من دعائم اقتصادياته ، ولان الديانتين اللتين سبقته وهى اليهودية والمسيحية لم تتعرض إحداهما للحد منه بله الغائه صراحة أو تنويها .

بل إنه جاء فوجد الفلسفة الأغريقية ، والحضارة الرومانية وهى التى استمد منها علماء أوربا ومفكروها عناصر نهضتهم وتحضرهم الحالى قد أقرته ووضعت له قواعد باعتباره أساسا من أسس الاقتصاد ، ومن أسس الاجتماع

ولكننا نجد الاسلام - هذا الدين الذى كما قلنا جاء يقرر الأخلاق ويعمل على النهوض بالكرامة البشرية - يسوى بين العبد وسيده أمام الدين ، وفى كثير من الحقوق والواجبات بل إن القرآن قد جعل منزلة الرقيق بالنسبة لنظرة الانسان كمنزلة والديه وذوى قرباه فقال تعالى (وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين وما ملكت أيمانكم)

وقال عليه الصلاة والسلام (إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس)

ثم إن الاسلام سعى إلى التخفيف منه ، والعمل على زواله شيئا فشيئا بخلق أبواب كثيرة يتلاشى فيها كالتكفير عن سيئة بعتق رقبة مؤمنة وبمساعدة من يسعى لفك رقبته بإعطائه حصة وحقا فى الزكاة التى أوجبها على المسلمين وبالاثابة والجزاء الحسن لكل من يعمل على إطلاق حرية عبد رقيق وكالحض

على الزواج بالإماء وبمجرد ولادتهن يصبحن أحراراً . . . فهم
حقيقة لم يلغ الرق صراحة ، لأن العقول سواء أكانت عقول السادة أو الرق
لم تكن تهضم هذه الدعوة ؛ ولأن نفوس الرقيق وهى التى استمرأت حيا
الرق واستعذبتها وألفتها وأصبحت غريزة فيها ورثتها عن أجيال بعد أجيا
ومن قرون تلو قرون . . ! هذه النفوس لم تكن قد تهيأت لتذوق حياة تخالف
ما ألفته من حياة ، ولم يكن قد توفر عندها التكافؤ للعمل فى حرية واستقلا
ولذلك نرى الاسلام قد حرم الرق الذى يأتى عن طريق النخاسين بالقنا
والتصيد والاختطاف .

والخلاصة التى نستطيع أن نخرج بها من موضوع دراستنا لمكانة الاسلام ب
الديانات أنه الدين الذى جاء متمشيا مع العقل فى تطوره ونهضاته ، وأنه الدي
الذى جاء يقرر الأخلاق ويعمل للكرامة البشرية التى تلتزمها الحضارا
والمدنيات الكبرى .